الفصل الثانى

النبى محمد ﷺ

النبى محمد ﷺ

أولا: هل جاء محمد بالإسلام للعرب أم لكل البشر؟

١ـ عندما أعلن محمد ﷺ دعوته على الناس فى أول إعلان له على الإطلاق قال لهم: «**إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة**». وهذا يعنى أنه دين جاء لكل البشرية منذ أول لحظة. فالإسلام لم يقدمه النبى ﷺ فى وقت من الأوقات على أنه دين عربى، ولكن بوصفه دينًا عالميًا لكل البشر. ويؤكد ذلك فى حديث آخر حيث يقول: «**وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة**»(١).

٢ ـ المتتبع لآيات القرآن الكريم يستطيع أن يتبين بوضوح أن القرآن يدعو الناس - كل الناس- إلى دين الله. وهذه الصفة العالمية واضحة كالشمس فى آياته العديدة التى نزلت فى مكة قبل الهجرة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، والسورة التى يفتتح بها القرآن وهى سورة الفاتحة تبدأ بقوله: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾، وهى سورة نزلت فى مكة قبل الهجرة النبوية، وقبل أن يكون للمسلمين دولة فى المدينة.

(١) رواه البخارى فى مواضع عديدة، انظر كتاب التيمم على سبيل المثال.

٣ ـ ومما سبق يتضح لنا أنه لم يكن هناك تغيير فى خطط النبى ﷺ، ولكن كان هناك تدرج فى التشريع. وهذا أمر منطقى وطبيعى، فلم يكن من المعقول أو الممكن إلغاء كل شىء درج عليه الناس بين عشية وضحاها؛ فالعادات المتأصلة فى النفوس يكون من الصعب محوها بسهولة. وقد ركز الإسلام فى البداية على ترسيخ العقيدة فى النفوس وتثبيتها فى العقول؛ لتكون الأساس الذى يبنى عليه تشريعاته، والقاعدة التى على أساسها يمكن تغيير ما درج عليه الناس. وقد سلك الإسلام هذا المسلك فى العديد من التشريعات مثل التدرج فى تحريم الخمر والربا وإلغاء الرق.. إلخ. وقد كانت الفترة المكية هى فترة تثبيت العقيدة، ومن هنا كان من السهل البناء عليها فى الفترة المدنيَّة.

ثانيًا: ما أسباب تعدد زوجات النبى ﷺ؟

١ ـ لقد تزوج النبى ﷺ السيدة خديجة وعمره خمسة وعشرون عامًا، أما خديجة فقد كانت سنها تقترب من الأربعين وكانت قد تزوجت قبله مرتين، وظلت له زوجة وحيدة إلى أن ماتت بعد أن أمضى معها حوالى ثمانية وعشرين عامًا. وظل وفيًا لذكراها طوال حياته لدرجة سببت الغيرة فى نفوس بعض زوجاته فيما بعد.

٢ ـ حياة النبى ﷺ، وما هو معروف من سيرته طوال حياته قبل وبعد البعثة، ينفى نفيًا قاطعًا أنه كان رجلاً شهوانيًا. وكيف لرجل تخطى الخمسين من عمره أن ينقلب فجأة إلى عبد للذة الجنسية، وقد كانت أمامه فى شبابه الفرص الكثيرة للاستمتاع - إذا أراد - مثل أقرانه من الشباب،

ولكنه كان عفيفًا طاهرًا، ولم يكن من بين زوجاته عذراء إلا عائشة، ومعظمهن كن أرامل، وقد كان زواجه منهن جميعًا لأهداف نبيلة إنسانية أو تشريعية، ولم يكن من بينها هدف الشهوة أو النهم الجنسى على الإطلاق[1].

٣ ـ بعد أن تخطى الخمسين من عمره تزوج سودة بنت زمعة أرملة أحد صحابته، ولم يعرف عنها أنها كانت ذات جمال أو ثروة أو مكانة، ولكنه تزوجها من باب الرعاية لأسر صحابته الذين تحملوا التعذيب والتشريد فى سبيل الدعوة. أما زواجه فيما بعد من عائشة وحفصة فلم يكن إلا تأكيدًا للرابطة القوية بينه وبين صاحبيه: أبى بكر، وعمر.

٤ ـ أما السيدة أم سلمة فقد مات زوجها متأثرًا بجراحه فى غزوة أحد وكانت مسنة، ولما أراد النبى ﷺ الزواج منها اعتذرت له نظرًا لكبر سنها ولكنه طيّب خاطرها وتزوجها لهدف إنسانى.

أما السيدة رملة بنت أبى سفيان فكانت قد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر زوجها وتركها دون عائل، فأرسل النبى إلى النجاشى يطلبها إنقاذًا لها من غربتها، وإنقاذًا لها من أهلها فى مكة إذا عادت إليهم بعد أن كانت قد هجرتهم فى سبيل دينها، وأملاً فى أن يكون الزواج منها سببًا فى استمالة والدها ـ صاحب النفوذ فى مكة آنذاك ـ إلى الدخول فى الإسلام.

أما السيدة جويرية بنت الحارث فقد كانت من بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق، وكان أبوها سيد قومه فأكرمها النبى ﷺ بالزواج منها وأعتقها وطلب من المسلمين أن يعتقوا سباياهم ففعلوا.

(١) راجع كتابنا: الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ص٣١/ ٤٢.

والسيدة صفية «اليهودية»، بنت سيد بنى قريظة تزوجها النبى ﷺ بعد أن أعطى لها حرية الاختيار بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة إلى أهلها[1].

٥ ـ أما زواجه من السيدة زينب بنت جحش ـ وقد كانت ابنة عمته ـ فقد كان لسبب تشريعى. فقد كانت زينب زوجة لزيد بن حارثة الذى كان النبى ﷺ قد تبناه ثم طلقت من زيد، وكانت عادة العرب تقضى بأن زوجة الابن بالتبنى لا تحل من بعده لأبيه الذى تبناه، فتزوجها النبى ﷺ ليلغى بذلك هذا المنع الذى لا مبرر له. وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (أى بعد طلاقها من زيد) لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ثالثا: ما مدى اليقين فى السنة النبوية؟

يشكك بعض علماء الإسلاميات فى الغرب فى صحة السنة النبوية، ويعتبرها جولدتسيهر (Goldzieher) من اختراع المسلمين فى العصور الأولى للإسلام[2]. وفيما يلى الرد على هذه الشبهة:

١ ـ السنة النبوية هى المصدر الثانى للإسلام بعد القرآن الكريم. والنبى ﷺ مأمور فى القرآن بتبليغ ما أنزل إليه من الوحى القرآنى، وفى الوقت نفسه

---

(١) راجع: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ عباس العقاد ص ١٩٢ وما بعدها ـ القاهرة ١٩٥٧م.

(٢) راجع كتابنا: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٠٦ وما بعدها، دار المعارف ١٩٩٧م.

مأمور بتبيين الوحى القرآنى[1]. وهذا البيان هو السنة النبوية التى تشمل قوله أو فعله أو ما أقره. وقد أشار النبى نفسه إلى ضرورة التمسك بسنته فى قوله فى خطبته المشهورة فى حجة الوداع: «**تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى**»[2].

٢ ـ لسنا ننكر أن هناك الكثير من الأحاديث الموضوعة أو المكذوبة المنسوبة إلى النبى ﷺ، ولكن هذا لم يكن فى يوم من الأيام خافيًا على علماء المسلمين فى مختلف العصور. ومن أجل ذلك فإنهم لم يفرطوا إطلاقًا فى ضرورة التدقيق الذى لا حد له فى رواية الأحاديث، فقد وضع القرآن أمامهم أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخى فى قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾ [الحجرات: ٦]. وتتمثل هذه القاعدة فى أن أخلاق الراوى تعد عاملاً هامًا فى الحكم على روايته، وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وطبقوها على رواة الأحاديث النبوية، وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدى على رواة الأحاديث هو الذى تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخى[3].

٣ ـ ونظرًا لأهمية السنة بالنسبة للإسلام فقد بذل علماء المسلمين جهودًا خارقة لتوثيقها وتمييز الثابت منها من غير الثابت، وابتكروا علومًا جديدة للحديث النبوى لخدمة هذا الغرض، فهناك علم الرجال، وعلم الإسناد،

(١) المائدة: ٦٧، النحل: ٤٤، ٦٤.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك.

(٣) راجع: تجديد التفكير الدينى فى الإسلام للدكتور محمد إقبال ص ١٦٠ وما بعدها.

وعلم الجرح والتعديل وغيرها، وكلها تتتبع رواة الأحاديث وتدرس أحوالهم، وما ظهر من أمرهم وما خفى؛ للتأكد من مدى صدقهم فيما نقلوه عن الرسول. وبخاصة أن النبى نفسه قد حذر من الكذب عليه حين قال: «من كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[1].

٤ ـ كنموذج من بين النماذج العديدة لجهود علماء المسلمين فى توثيق الحديث النبوى نشير إلى جهود الإمام البخارى (٨١٠ـ٨٧٠ م) الذى أفنى حياته كلها فى خدمة الحديث النبوى. فقد جمع هذا العالم أكثر من نصف مليون حديث منسوبة إلى النبى ﷺ. ولكنه بعد الفحص والتدقيق لم يأخذ منها فى صحيحه نتيجة للمنهج العلمى الدقيق والشروط الصارمة التى وضعها إلا حوالى تسعة آلاف حديث، فإذا حذفنا منها الأحاديث المكررة لم يبق فى صحيح البخارى إلا حوالى ثلاثة آلاف حديث فقط. وهكذا صنع غيره من علماء الحديث.

٥ - بعد الجهود المضنية لعلماء الحديث فى سبيل توثيق الأحاديث النبوية اعتمد المسلمون ستة كتب فى هذا المجال هى: صحيح البخارى، وصحيح مسلم، وسنن كلٍّ من النسائى وأبى داود والترمذى وابن ماجة. وهناك مؤلفات إسلامية عديدة أشارت إلى الأحاديث الضعيفة والموضوعة التى يصل عددها إلى عشرات الآلاف.

ومن ذلك يتضح أن علماء المسلمين قد خدموا السنة النبوية بما لا نظير له لدى الأمم الأخرى، وأن الشك فيها جملة وتفصيلاً أمر لا مبرر له.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

رابعًا: هل هناك تعارض فى الأحاديث النبوية؟

من الشبهات التى تثار حول الأحاديث النبوية أن هناك تعارضًا بين هذه الأحاديث، الأمر الذى يعنى إسقاط حجيتها، وردًا على ذلك نضيف إلى ما سبق ما يلى:

١ ـ لقد أكد القرآن الكريم على الأخذ بما جاء به الرسول فى قوله: ﴿وما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقد اشتملت الأحاديث النبوية على ما أتانا به الرسول وما نهانا عنه. ومن هنا فالسنة النبوية ضرورية لا نستطيع أن نتخلى عنها، وإلا كنا مخالفين للقرآن الكريم نفسه.

٢ ـ ليست هناك مشكلة فى تمييز الأحاديث الصحيحة من غير الصحيحة، فهذا أمر قد بذل فيه علماء المسلمين جهودًا خارقة منذ قرون ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الرد على الشبهة السابقة ـ والسنة لا يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها الأصل الثانى للإسلام، ولا يجوز التخلى عن هذا الأصل؛ بسبب توهم وجود تعارض فى بعض الأحاديث النبوية. فهذا التعارض ـ إن وجد ـ غير حقيقى، ويمكن بيان وجه الصواب فيه بالتأكد من صدق الروايات بناء على القواعد العلمية الدقيقة التى وضعها علماء الحديث فى هذا الشأن.

٣ ـ السنَّة النبوية شارحة لما أتى مجملاً فى القرآن الكريم، فكيف يمكن التخلى عنها بناء على أسباب متوهمة؟ إننا نحن المسلمين نؤدى صلاتنا

يوميًا بالطريقة التى وضحتها لنا السنة النبوية . وهذا التفصيل الوارد فى السنة بشأن الصلاة كما نؤديها لم يرد فى القرآن الكريم . وهناك أمثلة كثيرة مشابهة .

٤ ـ الكتب المقدسة للأديان السابقة وردت بطريقة مشابهة للطريقة التى وردت إلينا بها الأحاديث النبوية ، ولم يطلب أحد من أصحاب هذه الديانات التخلى عنها لوجود بعض التعارض فيها أو بعض الأخبار غير الموثقة ، فالعقل والمنطق يدعو فى مثل هذه الأحوال إلى ضرورة التثبت من المرويات . وهذا ما فعله علماء المسلمين بالنسبة للأحاديث النبوية منذ قرون عديدة .

***